الفصل الحادي والستون

أديان العرب

والعرب قبل الإسلام مثل سائر الشعوب الأخرى تعبدوا لآلهـــة ، وفكروا في وجود قوى عليا لها عليهم حكم وسلطان ، فحاولوا كما حاول غيرهم التقرب منها واسترضاءها بمختلف الوسائل والطرق ، ووضعوا لها أسماء وصفـات ، وخاطبوها بألسنتهم وبقلوبهم ، سلكوا في ذلك جملة مسالك ، هي ما نسميها في لغاتنـــا بالأديان .

وتقابل كلمة (دين) العربية لفظة Religion في الانكليزية من أصل (لاتيني) هو Religere أو Religare . وآراء العلماء المعنيين بتأريخ الأديان وفلسفتها على اختلاف كبير جداً في وضع حد علمي مقبول بين الجميع لموضوع الدين ، وربما لا يوجد موضوع في العالم اختلفت في تحديـده الآراء كهذا الموضوع : موضوع ماهية الدين وتعريفه ، حتى صار من المستحيل وضع إطار يتفق عليه لصورة يجمع على أنها تمثل الدين . والشيء الوحيد الذي يمكن أن يفعله كاتب ، هو أن يكتب رأيه بوضوح فيما يعنيه من (الدين) ، فإذا فعل ذلك ، صار من المعروف مـــا قصد صاحبه منه [١] .

وقد عرّف بعض العلماء الدين أنه إيمان بكائنات روحية تكون فوق الطبيعـــة والبشر، يكون لها أثر في حياة هذا الكون [٢] . وعرفه آخرون أنه استمالة واسترضاء

---

١ Sir James G. Frazer, The Golden Bough, A Study in Magig and Religion, Vol.. I, p. 50, Abridged Edition, London, 1947.

٢ E.B. Tylor, Primitive Culture, I, p. 424, Ency. Brita. Vol.. 19, p. 103.

لقوى هي فوق البشر ، يؤمن أنها تدير وتدبر سير الطبيعة وسير حياة الانسان[1]. وهو عند بعض آخر شعور وتفكير عند فرد أو جماعة بوجود كائن أو كائنات إلهية ، والصلة التي تكون بين هذا الفرد أو تلك الجماعة وبين الكائن أو الكائنات الإلهية[2] . وهو يطلق بهذا الاعتبار على الإسلام كما يطلق على اليهودية والنصرانية وعلى المجوسية وعلى غيرها من أديان سواء أكانت سماوية أم غير سماوية كما يصطلح على ذلك بعض العلماء .

وهناك تعريفات وحدود كثيرة أخرى للدين، نشأت من اختلاف أنظار الباحثين بالقياس الى مفهوم الدين . فهناك مسائل كثيرة مختلف فيها : هل تدخل في نطاق حدود الدين أو لا كما ان مفهومه قد تغير عند الغربيين باختلاف العصور[3] .

وليس من السهل وضع حدود معينة لمعنى الدين ، فإن وجهات نظر الأديان نفسها تختلف في هذا الباب . وللدين في نظر الشعوب البدائية مفهوم يختلف كل الاختلاف عن مفهوم الدين عند غيرهم ، ومفهومه في نظر الأقوام المتقدمة يختلف باختلاف دينها وباختلاف وجهة نظرها الى الحياة . وهناك أمور تدخل في حدود الدين عند بعض أهل الأديان ، على حين انها من الأمور الأخلاقية أو من أمور الدولة في نظر بعض آخر ، ومن هنا تظهر الصعوبات في تعيين المسائل التي تعدّ من صلب الدين في نظر الجميع[4] .

وللدين مهما قيل في تعريفه ، شعائر تظهر على أهله ، فتميزهم عن أتباع الديانات الأخرى، كما في العبادات والمأكولات والمعابد واللغات وما شاكل ذلك[5] ، ولهذه الأمور أثر بالطبع في النواحي الاجتماعية والثقافية ، إذ تطبع أتباع الدين بطابع مميز خاص .

وقد زعم بعض المستشرقين ان لفظة (الدين) من أصل أعجمي ، وانها من

---

١ The Golden Bough, Vol.. I, p. 222, Abridged Edition, p. 50.

٢ H. Schmidt, Philosophische Wörterbuch, S. 551.

٣ Hastings, Encyclopaedia of Religion and Ethics, Vol. 10, p. 662, Art. Religion, Encyclopaedia of Social Sciences, Vol. 13-14, p. 228, Ency. Brita., Vol., 19, p. 103, Friess and Schneider, Religion in Various Cultures, New York, 1932.

٤ Ency. Relig., Vol. 10, p. 263, Ency. of Social., Vol. 13-14, p. 228.

٥ Ency. Relig., Vol.. 10, p. 663.

الألفاظ المعربة ، أصلها فارسي هو (دَيْنا) Daena [1] . وقد دخلت في العربية قبل الاسلام بمدة طويلة . وترد لفظة (دين) بمعنى الحشر في الإرميـة والعبرانية كذلك . وهي (دينو) في الإرمية . وتقابل لفظـة Daino الإرمية لفظة الديان في العربية . وهي بمعنى القاضي في هذه اللغة . وتعني لفظة (دين) القضاء في اللغة البابلية . و (ديان) (ديونو) Dayono ، الحاكم والمجازي والقاضي في لغة بني إرم [2] . وهي بهذا المعنى في العربية أيضاً [3] .

والدين في تعريف علماء اللغة : العادة والشأن . تقول العـرب : ما زال ذلك ديني وديدني ، أي عادتي . والدين بمعنى الطاعة والتعبد . وقد ورد في الحديث: (كان على دين قومه) ، أي كان على ما بقـي فيهم من إرث ابراهيم ، من الحج والنكاح والميراث ، وغير ذلك من أحكام الايمان . وجاء : (كانت قريش ومن دان بدينهم ،أي اتبعهم في دينهم ووافقهم عليه،واتخذ دينهم له ديناً وعبادة) [4] .

ومن (دين) الديّان ، بمعنى الحكم القاضي والقهار . ومن ذلك مخاطبة (الأعشى الحرمازي) الرسول بقوله :

يا سيد الناس وديّان العرب .

والديان : الله ، ومن أسماء الله [5] .

وقد وردت هذه اللفظة في المعنى المفهوم منها في الاسلام في بيت شعر ينسب الى أميّة بن أبـي الصلت ، هو :

كلّ دين يوم القيامة عند اللـ ـه إلاّ دين الحنيفـة زور [6]

---

١ Handwörterbuch des Islams, S. 98, Grundriss, der Iran. Philoso. I, I, S. 107, 270, I, 2, S. 26, 170, II, S. 644, Juynboll, Handbuch des Islamischen Gesetzes, S. 40, 58, Schorter Ency. of Islam, p. 78, Ency. I, p. 975, Zeitscher. fur Assyr., Bd., XIV, S. 351.

٢ برصوم (ص ٦٠) ، غرائب اللغة (١٨٢) .

٣ اللسان (١٣/١٦٦ وما بعدها) ، (دين) .

٤ اللسان (١٣/١٦٦ وما بعدها) ، (دين) ، تاج العروس (٩/٢٠٨ وما بعدها) ، (ديـن) .

٥ اللسان (١٣/١٦٦ وما بعدها) ، (دين) ، تاج العروس (٩/٢٠٨ وما بعدها) ، (ديـن) .

٦ الاغاني (٤/١٢٢) ، (دار الكتب المصرية) .

غير أننا لا نستطيع أن نحكم بورودها في شعر أمية ما لم نثبت أن ذلك الشعر هو من شعره حقاً ، وأنه ليس بشعر إسلامي صنع ووضع على لسانه ، فقد وضعت أشعار وقصائد على لسانه وعلى لسان غيره من الشعراء .

ووردت بهذا المعنى أيضاً في النصوص الثمودية . وردت في نص سجله رجل من قوم ثمود ، توسل فيه إلى الإلـه (ودّ) ، أن يحفظ له دينه ، (ا ل ه د ي ن ي ق . ي د)[1] ، ووردت في نص آخر جاء فيه : (بدين ود امت)[2] ، أي (بدين ودّ أموت) ، أو (على دين ودّ أموت) . فاللفظة إذن من الألفاظ العربية الواردة في النصوص الثمودية ، وقد يعثر عليها في نصوص جاهلية مدوّنة بلهجات عربية أخرى .

ويصنف بعض العلماء، الأديان، الى صنفين: أديان بدائية Primitive Religions ، وأديان عليا The Higher Religions ، غير أن هذا التقسيم لا يستند الى التسلسل الزماني ، وإنما يقوم على أساس دراسة أحكام الدين وعقائده وعمق أفكاره . فالأديان التي تقوم على أفكار بدائية وعلى السحر Magic وعلى المبالغة في التقديس وتقديم القرابين Sacred ، والتي تنحصر عبادتها بأفراد قرية أو قبيلة واحدة ، وأمثال ذلك مما يشرحه علماء تأريخ الأديان وعلماء فلسفة الأديان ، هي من أديان الصنف الأول . فإذا توسع مجال الدين وشمل قبائل عديدة ، وتعمق في أحكامه وفي تشريعه وفلسفته ، وصار الإلـه أو الآلهة إلهاً ذا سلطان واسع أو آلهة ذات سلطان واسع عدّ الدين من الأديان العليا[3] .

وأما تقسيم الأديان الى أديان قبيلية Tribal Religions ، و(أديان قومية) National Religions ، وأديان مطلقة عامة(Absolute (Universal Religions) (Religions ، فإنه ، وإن كان تقسيماً واضحاً ظاهراً بالقياس الى الطرق الأخرى لتقسيم الأديان ، يرد عليه أنه تقسيم بني على أسس وحدود ليست لها أرض صلبة في جوهر الدين وأركانه ، فهو بعيد عن المبادىء الأساسية التي تجب مراعاتها في تقسيم كل علم أو موضوع[4] . كذلك تجابه التقسيم الثلاثي للأديان الى (أديان

---

١ Grimme, S. 34, 40.
٢ Mu 646/17, Grimme, 40.
٣ ENCY. BRITA., Vol. 19, p. 107.
٤ Ency. Brita. Vol. 19, p. 111.

الطبيعة) Nature Religion . و(ديانة الشريعة) Geztzes Religion ، و(ديانة الخلاص) Erlosungs Religion عند بعض العلماء الألمان صعوبات كبيرة تجعل السير على أساسه في دراسة تطور الدين أمراً عسيراً شاقاً[1] .

وتستند دراسات علماء تأريخ الأديان لتطور الأديان والأدوار التي مرت بها الى دراسة أمور كثيرة تأريخية ونفسية واجتماعية واقتصادية،ولهم في ذلك جملة طرق ، منها طريقة الدراسات المقارنة The Comparative Method ، وهي تعتمد كما يتبين من اسمها على المقارنات بين الأديان ، فتتناول جميع النواحي بالبحث ، لتجد ما بينهـــا من مطابقات ومفارقات . ومنهـــا طرق البحث التأريخـــي والاجتماعي Historical and Sociological Methods وتستند الى الدراسات التأريخية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والجغرافية والعوامل الأخرى ، للنـاس وللمنطقة التي عاشوا فيها ، وأثر كل هذه العوامل في نمو الأفكار الدينية وظهورها . وطـــرق عديدة أخرى تذكر في كتب تواريخ الأديان[2] .

وقد تقدمت دراسة تأريخ الأديان تقدماً كبيراً ، ولا سيما بعد اتبـاع أساليب الطرق التجريبية والبحوث المقارنة والتحليل النفسي في هذه الدراسة . وظهر بحث جديد شائق طريف ، هو (فلسفة الدين) The Philosophy of Religion ،أفاد كثيراً في معرفة دراسة تطور الأديان ومبادئها الأساسية ، كما ظهرت فروع أخرى كهذا الفرع لها صلة بدراسة الدين وتقدمه ، كالفرع النفسي الذي يعتمد عـــلى الدراسات النفسية للدين ، وهو فرع نستطيع أن نسميه بـ (علم النفس الديني) The Psychology of Religion في الانكليزية و Religionspsychologic في الألمانية[3] . وكالفرع الذي يعتمد على أساليب بحث الاجتماع وطرقه لدراسة الدين باعتبار أن الدين نفسه ظاهرة من ظواهر الحياة الاجتماعية[4] .

وهناك عوامل عديدة لها أثرها في تطور الأديـان ، وفي (تكييفها) ، منها أثر (العوامل الطبغرافية)Topographic Factors . وأثر (المحيط) Climatic Factors

---

١ Philosophische Wörterbuch, S. 552.

٢ Ency. Relig., 10, p. 964.

٣ Strattons, Psychology of he Religious Life, 1911, Ency. Brita., 19, p. 111, Schmidt, S. 554.

٤ Schmidt, S. 554, J. Wach, Einfuhrung in die Religion, 1941.

وأثر الحالات النفسية في تكييف الدين ، وفي تصور الناس لآلهتهم . ولهذا تصور اليونان مثلاً آلهتهم على شاكلتهم ، تصوروها ذات أخلاق وصفات تشبه أخلاق البشر وصفاتهم ، تتخاصم وتتصادق وتتباغض ويحسد بعضها بعضاً ، تشرب الخمر وتحزن وتفرح ، وتسرق أيضاً . ونجد في الـ (ايدا) Edda نفسية الشعوب الشمالية الأوروبية ممثلة في الأساطير التي تتحدث عن الآلهة والأبطال[1] .

ويظهر أثر العوامل المذكورة في الديانة الهندية القديمة ، وهي من الديانات الآرية ، وفي الديانة المجوسية ، وهي من أهل السهول وديانات أهل الجبال ، وبين ديانات الساميين الشماليين وديانات الساميين الجنوبيين ، يظهر في الأساطير (Mythlogy) وفي تصور الآلهة وتقديمها وتأخيرها وما شابه ذلك من أمور[2] .

ولشكل المجتمع أثره كذلك في تطوير الدين وفي أحكامه . فمجتمع يقوم على الزراعة يختلف في تفكيره عن مجتمع يعيش على الصناعة أو على الرعي في بوادٍ واسعة ، كذلك للسياسة ولأشكال المجتمعات السياسية دخل في تطور الأديان . وقد كان التعاون وثيقاً جداً في الأيام الماضية خاصة بين السلطات الزمنية وبين السلطات الدينية حتى كان الحكام الزمنيون كهاناً في كثير من الأوقات ، كما حدث أن وقع اختلاف بين السلطتين أدى الى حدوث تغيير في عقيدة الحكومة أو أكثرية الشعب .

وطالما أدى قهر مدينة أو قبيلة أو شعب الى قهر آلهتها معها وموتها ، والى عبادة آلهة القاهرين المتغلبين باعتبار أنها أقوى وأعظم شأناً من آلهة المغلوبين التي لم تتمكن من حمايتهم من تعديات الغالبين . وقد تبقى تلك الآلهة فتندمج في آلهة المغيرين ، فيزداد بذلك العدد ، وتتعدد الآلهة ، وتختلط الأساطير بعضها ببعض وتتداخل . ولهذه الناحية أهمية كبيرة في تحليل عناصر هذه الأساطير ، ورجْعها الى منابعها الأولى . كذلك يكون للجوار وللصلات التأريخية والروابط الثقافية أثر في ديانات الشعوب وفي (تكييفها) ويكون للثقافة خاصة أثر بارز في هذا التوجيه.

غير أن للأديان كذلك أثرها في توجيه الأفراد والقبائل والشعوب ، وفيما ينتج عن عمل الإنسان من مجتمعات وسياسة وثقافة واقتصاد[3] . فهذه نواحٍ يجب أن

---

١ Ency. Social.. 13-14, p. 232.

٢ Ency. Social.. 13-14, p. 232.

٣ Ency. Social. 13-15, pp. 234.

تلاحظ كلّها في دراستنا لتأريخ الأديان . هذا ويجب ألاّ نتصور أن أديان العرب قبل الإسلام لم تتأثر بمؤثرات خارجية ، فلم تأخذ من الأمم والشعوب التي اتصلت بها شيئاً ، جرياً على نظرية القائلين بعزلة العرب وبعدم اتصالهم بالخارج ، وبأنهم بدو ، لا علم لهم ولا رأي ولا دين . وهي نظرية نشأت عن عدم وقوف القائلين بها بأحوال العرب قبل الإسلام . وإذا وافق أولئك على أن اليهودية والنصرانيـــة كانتا في جزيرة العرب قبل الإسلام كما نص على ذلك القرآن الكريم ، وأن من العرب من كان على دين يهود ، وأن منهم من كان على دين النصارى ، فلـن يستطيعوا إنكار ورود اليهودية والنصرانيـــة الى العرب من الخارج بعمـــل الهجرة والتبشير والاتصال بفلسطين والعراق . وسيوافقون أيضاً على أن الوثنيين قد تأثروا كذلك بوثنية غيرهم ، كما نص على ذلك الاخباريون وانهم أثروا في غيرهم أيضاً .

إن معارفنا عن أديان العرب قبل الاسلام مستمدة في الدرجة الأولى من النصوص الجاهلية بلهجاتهـــا المتعددة من معينية وسبئية وحضرمية وأوسانية وقتبانية وثمودية ولحيانية وصفوية ، وهي نصوص ليس من بينها نص واحـد ويالأسف في أمور دينية مباشرة ، مثل نصوص صلوات أو أدعية دينية أو بحوث في العقائد وما شابه ذلك . غير أن هذه النصوص المذكورة ، ومعظمها كما قلت سابقاً في أمور شخصية ، حوت مع ذلك أسماء آلهـــة ذكرت بالمناسبة ، وبفضلها عرفنا أسماء آلهة لم يصل خبرها الى علم الأخباريين ؛ لأن ذكرها كان قد انطمس وزال قبـــل الإسلام . ومن هذه النصوص استطعنا أن نستخرج آلهة القبائل العربية القديمة ، وأن نرجعها الى المواضع التي كانت تتعبد بها لها ، وأن نعين العصور التي كان الناس فيهـــا يتعبدون لها على وجه التقريب .

كذلك تعدّ الكتابات والنقوش المدوّنة ببعض اللغات الأعجمية كالآشورية والعبرانية واليونانية واللاتينية ولغة بني إرم ، مورداً مفيداً لمعرفة أديان العرب قبـل الإسلام بعد النصوص العربية . فقد وعت أسماء أصنام قديمة نصت عليها ، وبذلك ساعدتنا في الوقوف على عبادتها وعلى من تعبّد لها من قبائل .

وأما أديان العرب قبيل الاسلام وعند ظهوره ، فالقرآن الكريم هو مرجعنا في هذا الباب . ففيه ذكر لما كان عليه الناس ولا سيما أهل مكة ويثرب والحجاز من عبادات وآراء ، وفيه أسماء بعض الأصنام الكبرى التي كانت تتعبد لها القبائل .

وفي تفسير القرآن الكريم تفصيل وشرح لما جاء موجزاً في الآيات البينات، ويضاف الى ذلك ما ورد عن هذا الباب في الحديث .

وفي الشعر المنسوب الى الشعراء الجاهليين إشارات الى بعض عقائد الجاهليين ، والى بعض الأصنام ، تعرّض لها شرّاح الدواوين بالمناسبات،وترد هذه الاشارات في القصص المروى عن أخبار الجاهلية وعن أنساب قبائلها وأيامها وأمثال ذلك وفي كتب الأدب واللغـة والمعجمات ، وهي تعيننا بالطبع على زيادة مادتنا في هذا الموضوع .

ويضاف الى ذلك ما ورد في كتب السير والمغـازي وفي كتب التواريخ من كتب خاصة مثل تأريخ مكة ، ومن كتب عامة عن عبادات القوم قبـل الوحي وفي أثناء الوحي وعن أمر الرسول بتحطيم الأصنـام والأوثان . وقد ورد بهـذه المناسبة أوصاف بعضها ، وذكرت بعض المواضع التي كانت قائمة فيها ، والقبائل التي كانت تتعبد لها ، وما أُدير حول بعضها من قصص ، أو ما قيـل عنها في الجاهلية وفي تحطيمها من أقوال .

ومما يجب علينا ملاحظته ، ان الشعر الجاهلي الـذي أمدّنا بفيض من معارف قيّمة عن الجاهلية القريبة من الاسلام ، لم يمدنا بشيء مهم عن الحياة الدينية عند الجاهليين ، فكأنه أراد مجاراة من دخل في الاسلام في التنصل من أيام الجاهليـة ومن التبرؤ منها ، ومن غض النظر عن ذكر أصنام حرمها الاسلام . وقد ذهب بعض المستشرقين الى ان رواة الشعر في الاسلام ، قد أغفلوا أمر الشعـر الجاهلي الذي مجّد الأصنام والوثنية ، وأهملوه ، فلم يرووه ، فمات ، وان بعضاً منهم قد هذب ذلك الشعر وشذبه ، فحذف منه كل ما له علاقة بالأصنام والوثنية ، ورفع منه أسماء الأصنام ، وأحلّ محلها اسم الله ، حيث يرد اسم الصنم . فما فيه اسم الله في الشعر الجاهلي ، كان اسم صنم في الأصل .

وقد ألّف بعض العلماء مؤلفات خاصة في الأصنام ، وصل الينا منهـا كتاب (الأصنام) لابن الكلبي[1] . أما المؤلفات الأخرى ، فلم يصل الينا منها إلا الاسم.

---

١ « كتاب الاصنام » بتحقيق المرحوم أحمد زكي باشا ، القاهرة ١٩٢٥ م الطبعـة الثانية ، « مطبعة دار الكتب المصرية » ، وسيكون رمزه : الاصنام . وقد طبـع الكتاب مرارا ، وترجم الى الانكليزية والالمانية والى لغات أخرى .

وممن ألّف في هذا الموضوع أبو الحسن علي بن الحسين بن فضيل بن مروان[1] ، والجاحظ[2] . وقد استفاد ياقوت الحموي في كتابه (معجم البلدان) من كتاب (الأصنام) لابن الكلبي ، وأورد ما أخذه منه في الكتاب . أمـا النسخة التي اعتمد الحموي عليها ، فكانت بخط عالم مشهور وبروايته هو الجواليقي[3] .

وقد تعرض ابن الكلبي لذكر الوثنية والأصنـام في مؤلفاته الأخرى عرضاً ، وأشار (ياقوت الحموي) في بعض المواضع الى روايات أخرى لابن الكلبي عن الأصنام ، ذاكراً انها ليست من كتاب (الأصنام) . كما استقى من منبع آخر ، هو محمد بن حبيب[4] .

وقد ألّف أبو عبدالله الحسين بن محمد بن جعفر الخالع كتاباً في أديان العرب وآرائهم ، اسمه (آراء العرب وأديانها) ، وقف عليه ابن أبي الحديد ، وأشار الى بعض هفوات رآها فيه[5] . وللجاحظ مؤلف اسمه (أديان العرب) استفاد منه أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني[6] .

وبالرغم من فضل من تقدم ممن ذكرت وممن لم أذكر ، على دارس التأريخ الديني للجاهليين فإنهم عفا الله عنهم ، لم يتعمقوا تعمقـاً كافياً في بحوثهم عن الوثنية ، ولم يتحرشوا بها في الغالب ، إلا بسبب اتصالهـا بالاسلام ، ثم إن في كثير مما ذكروه عن الوثنية طابع السذاجة وأسلوب الصنعة . وهو في أحوال الوثنية في الحجاز وعند القبائل التي ورد لها ذكر في حوادث الاسلام في أيام الرسول ، في مثل قدوم وفود سادات القبائل على النبي ، وأمر الرسول بتحطيم الأصنـام . ولهذا لا نجد للوثنية في بقية مواضع جزيرة العرب ، مكاناً فيما كتبه أولئك العلماء

---

١ « كتاب الاصنام وما كانت العرب والعجم تعبد من دون الله تبـارك اسمـه » ، الفهرست (ص ١٢٥) ، الاصنام (٢٣) ، « الرد على عبدة الاوثان » ، معجـم الادباء (١٣٢/١) .

٢ الاصنام (٢٣) ، وقد نقل منه (النويري) في كتابه نهاية الارب (١٥/١٦) ، (فهو ما نقله أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ـ رحمه الله ـ في كتاب له سماه : كتاب الاصنام ، قال فيه ...) .

٣ الاصنام (٢٤) .

٤ J. Wellhausen, Reste Arabischen Heidentums, Berlin, 1927, S. 12.
وسيكون رمزه : Reste

٥ بلوغ الارب (٣٠٨/٢) .

٦ Brockelmann, Suppl.. I, S. 946.

عن الأصنام والأوثان أو الزندقة . ثم ان في الذي ذكروه وكتبوه تناقض محير ، وتنافر عجيب ، يجعلك تشعر ، ان رواة تلك الأخبار ، لم يكونوا يملكون يومئذ أدوات النقد لصقل ما سمعوه من أفواه الرواة ، وما نقلوه عمن أدرك الجاهلية من أقوال ، أو انهم كانوا يعمدون الى الوضع أحياناً : لصنع أجوبة عن أسئلة وجهت اليهم في أمور لم يأتهم علم بها من قبل .

خذ ما ذكره (الطبري) في تفسيره عن اللات والعزى ومناة ، تجده يروي أقوالاً ذكر سندها تتناقض فيما بينها بشأن هذه الأصنام ، وبشأن بيوتها ومواضعها، مما يدل على أن رواة تلك الأخبار لم يكونوا على علم بأخبارها ولا وقوف على حقيقتها ، بدليل أن كل واحد منهم ناقض غيره فيما قاله ، وأن أحدهم يذكر خبراً ثم يعود فيذكر ما يناقضه[1] . حدث كل ذلك في أمور كانت باقية الى ما بعد فتح مكة ، فكيف حالهم اذن في الأمور البعيدة نوعاً ما عن الاسلام .

ولا تتناول الموارد الإسلامية بعد ، إلا الوثنية القريبة من الإسلام والوثنية التي كانت متفشية بين قبائل الحجاز في الغالب ، وبين القبائل التي اعتمد عليها رواة الأخبار في جمع اللغة والأخبار.لذلك لا نجد فيها ذكراً للوثنية البعيدة عن الاسلام، فلم يرد فيها مثلاً أي شيء عن (المقه) إلـه سبأ الأكبر ولا عن بقية الآلهة العربية الجنوبية الكبيرة مثل (عثتر) ، وعن دين العرب الجنوبيين وشعائرهم ، ولا عن معبودات قبائل العربية الشرقية : أو قبائل العراق أو بلاد الشأم في الأزمنة البعيدة أو القريبة من الإسلام .

وأما أخبارها عن اليهودية والنصرانية ، فقليلة جداً ، قصتها وروتها لما لها من تماس وصلة بما جاء في القرآن الكريم ، أو لما لها من علاقة بأيام الرسول . ولهذا صارت خرساء صامتة بالنسبة الى أحوال أهل الكتاب في بقية أنحاء جزيرة العرب أو في العراق وفي بلاد الشأم . فلم تتحرش بهم إلا بقدر . وبسبب ذلك صارت معارفنا عنهم قليلة جداً . وقد كان في إمكان أهل الأخبار جمع معلومات واسعة عن النصرانية في العراق قبل الإسلام ، برجوعهم الى رجال الدين النصارى الذين كانوا في الحيرة وفي مواضع أخرى من العراق ، وهم رجال لهم علم واسع بهذه الأمور ، لكن اختلافهم عنهم في الدين على ما يظهر ، وانصرافهم إذ ذاك

---

١ تفسير الطبري (٣٥/٢٧ وما بعدها) ، تاج العروس (٥٥/٤) ، (عزز) .

عن رواية كلّ ما يتعلق بالأمور الجاهلية خلا ما يتعلق بالنواحي القبلية وبالنواحي الأدبية واللغوية ، كانا من العوامل الـتي أدت الى غض نظرهم عن البحث في هذه الأمور .

وبفضل إقرار الاسلام لبعض أحكام وشعائر الجاهليين ، استطعنا الوقوف على جانب من أحكامهم وشرائعهم . فعرفنا بذلك بعض شعائر الحج من حجّ مكة ، وبعض أحكامهم وآرائهم في الدين ووجهة نظرهم الى الحلال والحرام ، والتقرب الى بيوت الأرباب وغير ذلك . وما كان في وسعنا الوقوف عليهـا لولا تعرض الإسلام لها بالإقرار والتثبيت ، أو بالتحريم والنهي،فأشير الى كلّ ذلك في القرآن الكريم وفي كتب التفسير وأسباب النزول والحديث .

وقد عُني المستشرقون بهذا الموضوع ، فكتبوا بحوثاً فيه. ومن هؤلاء (ولهوزن) J. Wellhausen صاحب كتاب(بقايا الوثنية العربية) Arabischen Heidentums [1] و (دتلف نيلسن) Ditlef Nielsen [2] و (لودولف كريـل) Ludolf Krehl وغيرهم[3] .

وقد اعتمد (ولهوزن) على ما نقله (ياقوت الحموي) من كتاب الأصنام ومن غيره،ذلك لأن كتاب الأصنام لم يكن مطبوعاً ولا معروفاً ايام ألف (ولهوزن) كتابه عن الوثنية العربية .

ويعدّ كتاب (ولهوزن) أوسع مؤلف في موضوعه كتبه المستشرقون عن الوثنية العربية . وقد كتب المستشرقون حديثاً جملة بحوث عن الأصنام العربية التي عثر عليها في الكتابات فاتَ ذكرها في كتـاب (ولهوزن) ، لأن أكثر النصوص الجاهلية لم تكن قد نشرت يومئذ ، ولأن كثيراً منها قد نشر حديثاً ، فلم يكن في استطاعة (ولهوزن) بالطبع أن يبحث في شيء من التفصيل في الوثنيـة ببلاد العرب الجنوبية . لذلك كان أكثر ما جاء في كتاب (ولهوزن) مستمداً من روايات

---

١ استعملت الطبعة الثانية ، وقد طبعت ببرلين سنة ١٩٢٧ م .

٢ Ditlef Nielsen, Die Altorabische Mondreligeon und die Mosaische Meberlieferung, Strassburg, 1904.

٣ Ludolf Krehl, über die Religion der Varislamishen Araber, Leipzig, 1863.
اذا أردت أسماء بعض المراجع عن هذا الموضوع ، فارجع الى :
D. G. Pfannmüller, Handbuch der Islam — Literatur, 1923.

الأخباريين . فمن الضروري اضافة هذه البحوث الجديدة الى ما كتبه هو وأمثاله، لنحصل على صورة شاملة عن أديان العرب قبل الاسلام .

وتفيد الأعلام الجاهليـــة المركبة Theophorus Names المدوّنـــة في النصوص الجاهلية وفي الموارد الاسلامية فائدة كبيرة في معرفة الأصنام ، وفي تكوين فكرة عنها . ففيها أسماء آلهة ، وفيها بعض الصفات الإلهية التي كان يطلقها الناس على آلهتهم . ونجد هذه الأسماء المركبة عند بقية الشعوب السامية كذلك . ومن مقارنة هذه الأسماء بعضها ببعض ، استخرج العلماء آلهة اشترك في عبادتها جمع الساميين[1].

ونعني بـ Theophorus Names الاعلامَ المركبة من أسماء آلهـــة ومن كلمات أخرى مثل (عبد) و (عطيـــة) و (امرىء) و (أوس) و (عائذ) و (جار) و (عوذ) و (وهب) . ترد قبل اسم الإلـه أو بعده ، فيتألف منها ومن أسماء الآلهة أسماء أعلام ، مثل عبد الأسد،وعبد الله ، وعبد سعد، وعبد العزّى ، وعبد محرق ، وعبد ذي الشرى ، وعبد يغوث ، وعبد ودّ ، وعبد قيس ، وعبد شمس ، وامرىء القيس ، وأمثال ذلك من أعلام .

ومعظم هذه الأعلام المدونة في مؤلفات الاسلاميين ، أسماء أشخاص عاشوا في الجاهلية القريبة من الاسلام ، حفظتها ووعتها ذاكرة الرواة ، ومنهم تناقلها أهل الأخبار . والغالب عليها الابتداء بكلمـــة (عبد) للرجال و (أمت) أي أمة للنساء ، ترد قبل اسم الصنم . أما الأسماء المبتدأة بكلمات أخرى غير (عبد) ، فمثل (أحمس الله) و (امرىء مناة) ، و (امرىء القيس) ، و (أنس الله) و (أوس الله) ، و (تيم اللات) ، و (خليل) ، و (زيد اللات) ؛ و (زيد مناة) ، و (سعد اللات) ، و (سعد مناة) ، و (سعد ودّ) و (سعد العشيرة) ، و (سكن اللات) ، و (سلم اللات) ، و (شراحيل) و (شرحيل) ، و (شرحبيل) ، و (شكم اللات) ، و (شهميـــل) ، و (شيع القوم) ، و (عائذ الله) ، و (عمرو اللات) ، و (عوذ مناة) و (عينيل) ، و (قسميل) ، و (مطرويـــل) ، و (وهب اللات) . وهي قليلة من حيث الاستعمال بالقياس الى الأعلام المبتدأة بـ (عبد)[2] .

---

١ Dr. H. Brau, Die Altnordarabischen Kultischen Personennamen, in WZKM, Bd. 32, 1925, S. 31. ff. 85. ff. Reste, I. ff, Ency., Religi.. I p: 659

٢ Reste, S. I.

ويلاحظ على بعض الأعلام المركبة ، مثل عمرو اللات ، وعوف إيل ، وجد اللات ، وسعد مناة ، وودّ ايل ، ان الكلمات الأولى من هذه الأسماء تتأخر في أعلام أخرى ؛ فتسبق بكلمة توضع قبلها فيتكون منها علم مركب جديد كما في الأسماء الآتية : عبد عمرو ، وعبد عوف ، وعبد جدّ ، وعبد سعد ، وعبد ودّ ، وقد كانت متقدمة في الأعلام الأولى . أما في هذه الأعلام فصارت في المنزلة الثانية .

وهذه الأسماء التي حفظتها ذاكرة أهل الأخبار ، تخالف أكثر الأعلام العربية والسامية القديمة المدوّنة في النصوص وفي مؤلفات اليونان والرومان والسريان وغيرهم من حيث الصيغ والتراكيب . فقد ابتدأت هذه الأعلام كما رأينا بكلمات تلتها أسماء الآلهة . أما الأعلام القديمة ، فقد كانت على العكس تبدأ باسم الصنم، وبعده الألفاظ الأخرى ، مثل : (الشرح) (ايل شرح) و (اليفع) (ايل يفع) و (الذرح) (ايل ذرح) و (الكرب) (ايل كرب) و (السمع) (ايل سمع) و (اليشع) (ايل يشع) وأمثال ذلك . أو تبدأ بكلمات ثم تليها أسماء الأصنام ، إلا أنها ليست في حالة الإضافة، بل على صورة الإخبار والفاعلية، مثل (يذكر ايل) و (يشع ايل) و (يدع ايل) و (يشرح ايل) و(يسمع ايل) . و (ايل) (ال) هنا هو اسم الإلـه (ال) (ايلو) المعروف عند جميع الساميين[1] .

وقد يوضع حرف الجر ، وهو (اللام) (لامد) في الاسم ، ليدل على تعلق الاسم بالإلـه ، مثل (لحي عثت) في النصوص العربية الجنوبية ، وقد عثر على طائفة من هذه الأعلام في الكتابات الفينيقية والعبرانية [2] .

وقد تهمل الكلمة الثانية من الاسم المركب ، ويقتصر على اللفظة الأولى ، كما في : أوس ، وزيد ، ووهب ، وتيم ، وسعد ، ونصر ، وعائذ ، وعبد ، وأمثال ذلك من أعلام . فإنها اختصار لـ (أوس الله) ، و (زيد اللات) ، و (زيد مناة) ، و (وهب اللات) ، و (تيم اللات) ، و (سعد مناة)

---

١ Reste, S. I, Nöldeke, über den Gottesnamen El, in Monatsberichte der Köni. Akademie der Wissenschaft zu Berlin, 1880, S. 761, 1887, S. 1175.

٢ Reste, S. 7, Nöldeke, in Wiener Zeitshrift für die Kunde des Morgenlandes, Bd., VI, S. 313.

و (سعد ودّ) ، و (سعد اللات) ، و (نصر اللات) ، و (عائذ الله) و (عبد ود) ، وغير ذلك . وقد يحدث العكس ، فتسقط الكلمة الأولى ، وتبقى الكلمة الثانية التي هي اسم الإلـه ، ويصير هذا الاسم اسماً لشخص أو لأسرة أو لقبيلة ، مثل : مناف ، وغنم ، وشمس ، وإساف ، ونائلة ، وزهـرة ، وقيس ، وعُطارد ، وهبل ، وجدّ ، وأمثال ذلك . فإن هذه هي أسماء آلهة في الأصل ، سبقت بكلمات مثل (عبد) ، ثم أهملت هذه الكلمات الأولى ، وبقيت أسماء الآلهة حية ، ولكنها صارت أسماء لأشخاص وأسر وقبائـل ، تسبقها لفظة (بنو) في بعض الأحيان ، لتدل على الانتماء الى ذلك الاسم[1] . ولهذا الانتماء أهمية كبيرة في نظر الباحثين في فلسفة الأديان وتأريخها .

ويلاحظ أن بعض الأعلام المركبة المبتدأة بـ (عبد) مثلاً ، لا تتكون كلمتها الثانية من اسم إلـه ، إنما تكون اسم موضع أو اسم شخص أو اسم جماد ، مثل: عبد حارثة ، وعبد المطلب ، وعبد أمية ، وعبد الدار ، وعبد الحارث ، وعبد الحجر ، وما شاكل ذلك . ولبعض العلماء تفاسير وتعليلات في العوامل التي أدّت الى هذه التسميات : منها أن بعض هذه الأسماء هو لآلهة قديمـة ، نسيت فظن أنها أسماء أشخاص : وأن بعضاً آخر منها هو أسماء أشخاص كانت لهم قدسيـة أو منزلة خاصـة ، فتبرك الناس بتسمية أولادهم عبيداً لهم ، وهو شيء يحدث حتى الآن ، إذ نقول عبد المسيح ، وعبد الرسول ، وعبد علي ، وعبد الأمير ، وعبد الزهرة ، وعبد محمد ، وان بعضاً آخر هو مسمّيات لمجتمعات ، مثل : عبد أهله ، وعبد العشيرة ، وسعد العشيرة ، أو انـه نسبة الى طوطم أو جماد مقدس في نظر الناس[2] .

وقد قضى الاسلام على الأسماء الوثنية ، كما قضى على كثير من معالم الجاهلية ، فاستبدل من أسلم اسمه الجاهلي الذي له صلة بصنم أو بشرك باسم إسلامي ، وبذلك زالت تلك التسميات . كما زالت أكثر التسميات اليهودية والنصرانية بدخول أصحابها في الإسلام . وهـذا شيء مألوف في تأريخ الانسان . فقد قضت اليهودية على الأسماء الوثنية القديمة ، وعوضت عنها بأسماء يهودية ذات صلة بالتوراة ، وقضت النصرانية على الأعلام الوثنية ، أو طورتها لتكون ملائمة مع النصرانيـة ، وهكذا

---

١ Reste, S. 7. ff.

٢ Robertson, p. 42, Reste, S. 4.

حدث في الأديان الأخرى ، بل وهـذا ما يحدث اليوم في كثير من أنحاء العالم القلقة عند وقوع انقلابات سياسية ، حيث تتناول الأسماء أيضاً بالتغيير والتبديل ، لتناسب الوضع الجديد .

وقد ذكر أهل الأخبار أسماء عدد من الصحابة ، كانت أسماؤهم ذات صلة بالأصنام ، فلما أسلموا أبدلها الرسول بأسماء اسلامية . فقد كان اسم كاتب النبي (عبدالله بن الأرقم بن أبي الأرقم) (عبد يغوث) فلما أسلم ، دعي (عبدالله)[1] . وكان اسم (عبدالله بن أصرم بن عمرو بن شعيثة) الهلالي ، (عبد عوف بن أصرم) ، فلما قدم على النبي ، فقال من أنت ؟ قال عبد عوف ، قال النبي : أنت عبدالله ، فأسلم[2] . ونجد غيرهما وقد أبدل الرسول أسماءهم ، حتى صار من يسلم يبدل اسمه إن كان له صلة بصنم ، حتى ماتت الأسماء الجاهلية التي هي من هذا القبيل .

والأساطير Mythos = Myth ، ونعني بها هنا الخرافات والأقاصيص المتعلقة بالآلهة Legend ، هي مصدر مهم لمعرفة تطور الأديان وتطور فكرة الألوهية عند الشعوب . وهي قد تكون شعراً ، وقد تكون نثراً،وفي كلتا الحالتين تكون مادة خصبة للباحثين .

ومعارفنا عن الأساطير العربية الدينية قليلة جداً . وهذا مما حمل بعض المستشرقين على القول بأن العرب لم تكن لهم أساطير دينية عن آلهتهم ، كما كان عند غيرهم من الأمم كاليونان والرومان والفرس وعند بقية الآريين ، بـل حتى عند بعض الشعوب السامية الأخرى مثل البابليين[3] . وفي رأيي اننا لا نستطيـع أن نجزم في مثل هذه الأمور ، لأن أحكامنا عن اليونان والرومان والبابليين انما استنبطناها من نصوص ومؤلفات وصلت الينا . أما العرب الجاهليون ، فلم يصل الينا منهم حتى الآن نصٌ ما في هذا الموضوع، يمكننا من الحكم بعدم وجود الأساطير الدينية عند العرب الوثنيين .

ومشكلتنا أننا لا نملك كما قلت نصوصاً دينية جاهلية ، ولا كتباً كتبها يونان أو لاتين أو سريان أو غيرهم عن أساطير العرب في الجاهليـة نستطيع استخراج

---

١ الاصابة (٢/٢٦٥) ، (رقم ٤٥٢٥) .
٢ الاصابة (٢/٢٦٧) ، (رقم ٤٥٣٤) .
٣ Ency. Religi. I, p. 660.

حكم منها عن أساطير العرب . ولكن هذا الوضع لا يخولنا نفي وجود الأساطير عند العرب ، بحجة بداوتهم وضيق أفقهم وبساطة تفكيرهم ، كما أنه لا يخولنا أيضاً الحكم بوجود أساطير عندهم من طراز عال كما نجده عند اليونان مثلاً . ويتبين من بعض روايات الأخباريين ، وهي قليلة ، أن العرب كانت لهم أساطير كالذي رووه من أن (العَيوق) عاق (الدبران) لما ساق الى الثريا مهراً ، وهي نجوم صغار نحو عشرين نجماً ، فهو يتبعها أبداً خاطباً لهـا ، ولذلك سموا هذه النجوم القلاص[1] وكالذي رووه عن (العَبُور) و (الغُمَيصاء) و(سُهَيْل). وقد كانت هذه النجوم مجتمعة ، فانحدر سُهَيْل فصار يمانياً ، وتبعته العَبُور فعبرت المجرّة ، وأقامت الغُمَيْصاء فبكت لفقد سهيل حتى غمصت[2]. وكالذي رووه من أن (الزُّهرة) كانت امرأة حسناء ، فصعدت الى السماء ومسخت نجماً ، وأمثال ذلك من قصص يظهر أنه من بقايا قصص أطول قديم[3] .

وإذْ لم تصل الينا نصوص دينية جاهلية ، صعب علينا تكوين فكرة صحيحة عن مفهوم الدين عند العرب ، وعن كيفية عبادتهم لآلهتهم ، وعن كيفية تصورهم للآلهة ، خاصة عند العرب الذين عاشوا قبل الميلاد .

وقد تعنينا أسماء الآلهة والأعلام المركبة في تكوين وجهة نظر عن صفات آلهة الجاهليين . فكلمات مثل (ودّ) و (شرح) و (سعد) و (سمع) ، أو تعابير مثل (ذت حمم) (ذات حميم) و (ذت صنتم) (ذات صنتم) و (ذت رحبن) (ذات رحبن) و (ذت بعدن) (ذات بعدن) (وذ قبضم) (ذو قبضم) وما شابه ذلك ، لا بد أن تكون لها معان خاصة تشير الى صفات الآلهة التي قيلت لها ، فتفيدنا في فهم عبادة الجاهليين وتفكيرهم في تلك الآلهة .

وإذا كانت بعض أسماء الآلهة أو صفاتها واضحة مفهومة تمكن الاستفادة منها في تكوين فكرة عن الآلهة ، فإن هناك بعضاً آخر يحيط بمعناه الغموض ، فلا نستطيع شرح معناه أو ترجمته الى اللغات الأخرى . وليس من المعقول بالطبع عدم وجود مدلول أو مراد لأسماء هذه الآلهة عند من وضعها لها ، ونسبها اليها ، وانما المعقول هو ان هذه المسميات نسيت بتقادم الزمن وبزوال دولتها وعظمتها

---

١ بلوغ الارب (٢/٢٣٩) .
٢ بلوغ الارب (٢/٢٣٩) .
٣ البلخي : البدء والتأريخ (٣/١٤) .

من الوجود ، وضاعت معالمها ، فلم يبق منها إلا الأسماء المجردة[1] . ولعل معانيها كانت غامضة حتى على من كان يتعبد لها ، لاختفائها منذ زمن طويل ، وعدم ورود نصوص مدونة الى المتعبدين لها في هذه المعاني،وهذا شيء مألوف معروف .

وتختلف نظرة الانسان الى الخالق والخلق باختلاف تطوره ونمو عقله ، ولهذا نجد فكرة (الله) (الإلـه) التي تقابل كلمة Deus في اللاتينية وكلمة Theos في اليونانية وكلمة God في الانكليزية ، تختلف باختلاف مفاهيم الشعوب ودرجات تقدمها . فهي عند الشعوب البدائية القديمة والحديثة في شكل يختلف عن مفهومها عند الشعوب المتحضرة . كذلك اختلفت عند سكنـــة البوادي عن سكنـــة الجبال والهضاب،ويختلف مفهوم فكرة الله عند الشعوب السامية عنها عند الشعوب الآرية، لأسباب عديدة يذكرها علماء تأريخ الأديان[2] . بل يختلف هذا المفهوم في داخـــل الشعب الواحد ، يختلف فيه باختلاف ثقافة الانسان وتقدم مداركه العقلية، فتصور كل انسان خالقه على قدر عقله ودرجة ثقافته ، صوّره وكأنه مرآة صافية لنفسه ولدرجة نمو عقله . ومن هنا قيل : ان الانسان يصنع إلهـه بنفسه ، أي يصوره على نحو صورته ومبلغ تفكيره .

يقول (أكسينوفان) Xenophanes : « تصور الأحباش آلهتهم فطس الأنوف، سوداً . وتصور أهل (تراقية) Thracians آلهتهم ذوي عيون زرق وشعر أحمر . وزعم اليونان أن تصورهم للآلهة هو التصور الصحيح . أما تصور الزنوج وأهل تراقية عن آلهتهم ، فهو تصور فاسد باطل ! ولو كان للماشية والخيل والسباع أيد تتمكن من الرسم والنحت ، لرسمت الخيل آلهتها على صورة خيل،ولنحتت تماثيلها على صورتها ، ولرسمت الماشية ونحتت آلهتها على صورتها وهيئتها، تماماً كما يصور الانسان وينحت آلهته على صورته وقدر إدراكه . كـل صنف يتصور ويرى آلهته على صورته »[3] . وقد نسب اليونان الى آلهتهم كل الصفات والأعمـــال الانسانية المعروفة بين اليونانيين ، فتصوروهم على هيئة بشر ، لهم الفضائل،ولهم الرذائل، يتزوجون وينسلون ويحبّون ويعشقون ويسرقون ويكرهون ويتخاصمون بينهم ويتحاسدون

---

١ Handbuch, S. 189.

٢ Ency. Religi., Vol. 6, p. 243, W. Robertson Smith, Lectures on the Religion of the Semites, London, 1894, p. 5, Ency. Britd., 10, p. 480, «Lyod».

٣ Ency. Religi., 10, p. 113.

ويقومون بأقبح الأعمال كما يفعل الانسان[1] .

وهناك أشكال عديدة للعبادة ، تمثل تعدد وجهة نظر الانسان بالقياس الى مفهوم الألوهية لديه . فهناك عبادة تسمى عبادة آباء القبائل ، حيث أسبغ على أجداد القبائل ما يسبغ عادةً على الآلهة من نعوت وصفات . وتجد هذه العبادة عند القبائل البدائية . وقد يكون هؤلاء الأجداد أجداداً حقيقيين ، وقد يكونون أشخاصاً خلقتهم الأساطير . ومهما يكن من شيء ، فقد أعطي هؤلاء صفات الربوبية ونعوتها ، ونظر اليهم نظرة من فيه قوى خارقة ذات هيمنة على العالم والخلق . وقد اصطلح على تسمية هذه العبادة بـ All Fathers في الانكليزية وبـ Verehrung des Stammesvaters و بـ Urvaters في الألمانية ، لأنها تقوم على أساس عبادة الأجداد[2] .

وألّه بعض الناس الظواهر الطبيعية ، لتوهمهم أن فيها قوى Spirit روحية كامنة مؤثرة في العالم وفي حياة الإنسان، مثل الشمس والقمر وبعض النجوم الظاهرة. وقد كانت الشمس والقمر أول الأجرام السماوية التي لفتت أنظار البشر اليها ، لما في الشمس من أثر بارز في الزرع والأرض وفي حياة الانسان بصورة مطلقة . كذلك للقمر أثره في نفس الإنسان بما يبعثه من نور يهدي الناس في الليل ، ومن أثر كبير يؤثر في حس البشر . فكانا في مقدمة الأجرام السماوية التي ألّهها الانسان. عبدهما مجردين في بادىء الأمر ، أي دون أن يتصور فيهما ما يتصور من صفات ومن أمور غير محسوسة هي من وراء الطبيعة . فلما تقدم وزادت مداركه في أمور ما وراء الطبيعة ، تصور لهما قوى غير مُدْرَكة ، وروحاً ، وقدرة ، وصفات من الصفات التي تطلق على الآلهة . فخرجتا من صفتهما المادية البحتة ومن طبيعتهما المفهومة ، وصارتا مظهراً لقوى روحية لا يمكن ادراكها ، إنما تدرك من أفعالها ومن أثرهما في هذا الكون .

وإذا كانت هذه العبادة قد اقتصرت على الظواهر الطبيعية البارزة المؤثرة ،

---

١ Ency. Religi., 10, p. 113.

٢ في الاصل « Father ours » ، وقد أطلق « هويت » « Howitt » الاصطلاح « All Father » عليه ،

Howitt, Native Tribes of S.E. Australia, London, 1904, Making of Religion, London, 1898, Ency. Religi., Vol. 6, p. 243.

فإن هناك توسعاً في هذه العبادة تراه عند بعض الأقوام البدائية ، يصل الى حد تقديس الأحجار والأشجار والآبار والمياه وأمثال ذلك ، إذ تصوروا وجود قوى روحية كامنة فيها ، فعبدوها على أن لها أثراً خطيراً في حياتهم . ونجد في أساطير الشعوب البدائية أن الإنسان من نسل الحيوان ومن الأشجار أيضاً ، كذلك تجد أمثلة عديدة من هذا القبيل في أساطير اليونان والرومان والساميين .

وهناك الشرك ، وهو عبادة آلهة عديدة ، كما ان هناك عقيدة التوحيد التي تدين بوجود إلَه واحد خالق لهذا الكون . وليس للشرك بالطبع عدد معين من الآلهة ، فقد يكون بضعة آلهة ، وقد يكون عشرات . والشرك هو الدين المعاكس لدين التوحيد ، ويعرف بإسم : Polytheism في الانكليزية من كلمة Polys اليونانية ومعناها (كثير) و (تعدد) ، ومن كلمة يونانية ثانية هي Theos وتعني (الإلَه) (الآلهة) . ويختلف الشرك عن عقيدة الـ Polydaemonism القائلة بوجود الأرواح والجن من حيث الطبيعة Nature ، كما يختلف عن أديان التوحيد Monotheism من حيث القول بتعدد الآلهة ، وعن القائلين بمبدأ (الحلول) (Pantheism) من حيث حلول الإلَه في الخلق والخلق في الإلَه[1] .

وتطلق في العربية كلمة (إلَه) على الإلَه الواحد ، وكلمة (آلهة) في حالة الجمع ، أي في حالة القول بوجود آلهة عديدة . وتقابل كلمة (إلَه) كلمة (ايلوه) Eloah = Eloh في العبرانية الواردة في سفر (أيوب) . ومنها كلمة (إيلوهيم) Elohim في حالة الجمع ، أي آلهة المستعملة في العهد القديم بالقياس الى آلهة الوثنيين[2] . وكلمة (إلَه) لا تعني على كل حال إلهاً معيناً على نحو ما تعنيه لفظة (الله) في العربية التي يراد بها الله الواحد الأحد ليس غير .

أما (الله) ، وهي كلمة الجلالة ، فهي (اسم علم) خاص به على رأي، وهي (علم مرتجل) في رأي آخر . وقد ذهب الرازي الى انه من أصل سرياني أو عبراني . أما أهل الكوفة فرأوا انه من (ال إلَه) ، أي من أداة التعريف

---

١ Ency. Religi., Vol. 10, p. 112.

٢ Hastings, p. 299, Ency. Religi., Vol. 6, p. 248, Ency. Bibli., III, Col. 33239 Hebrew Lexicon, 42, Ency., II, p. 464.

(ال) ومن كلمة (إله) . وهناك آراء لغوية أخرى في أصل هذه اللفظة [١] .

ولم يعثر على لفظة (الله) في نصوص المسند ، وإنما عثر في النصوص الصفوية على هذه الجملة : (ف هـ ل هـ) ، وتعني (فالله) أو (فيا الله) و (الهـاء) الأولى هي أداة التعريف في اللهجة الصفوية . وقد وردت الجملة على صورة أخرى في بعض الكتابات الصفوية . وردت على هذا الشكل : (ف هـ ل ت) ، أي (فالات) (فيا الآت) أي في حالة التأنيث . وتقابل (الـلات) ، وهي صنم مؤنث معروف ذكر كذلك في القرآن الكريم [٢] .

ويظن بعض المستشرقين أن (الله) هو اسم صنم كان بمكة ، أو أنه (إلـه) أهل مكة ، بدليل ما يفهم من القرآن الكريم في مخاطبته ومجادلته أهل مكـة من اقرارهم بأن الله هو خالق هذا الكون [٣] .

وترد في العربيـة كلمة أخرى من الكلمات المختصة بالخالق ، هي (ربّ) وجمعها (أرباب) . وهي من الكلمات العربية الجاهلية المذكورة بكثرة في القرآن الكريم ، ولهـا معنى خاص في اللاهوت وفي الأدب العربي النصراني . وتقابل كلمة Lord في الانكليزية . وكلمة (بعل) ، و (ادون) في اللغات السامية الأخرى [٤] . ويذكر علماء اللغة أن (الربّ) هو الله ، هو ربّ كلّ شيء ، أي مالكه . وله الربوبية على جميع الخلق ، لا شريك له ، وهو ربّ الأرباب ، ومالك الملوك والأملاك ، ولا يقال الربّ في غير الله ، إلا بالإضافة .

وقد قال الجاهليون : (الربّ) للملك . قال الحارث بن حلزة :

وهو الربّ ، والشهيد على يو م الحيـارين ، والبلاء بلاء [٥]

ويظهر أن لفظـة (الرب) و (رب) كانت بمعنى (سيد) ومالك عند

---

١ الطبري : تفسير (١/٤٠) ، اللسان (١٧/٣٥٨) ، الكشاف (ص ٨) ، تفسير الرازي (١/٨٤ وما بعدها) ، البيضاوي (١/٤) طبعة (Fleisher) المفردات ، للاصفهاني (ص ١٩ وما بعدها) . Ency., II, p. 464.

٢ Ency. Religi., Vol. 6, p. 248.

٣ Ency. Religi., Vol. 6, p. 248.

٤ Ency. Religi., Vol. 6, p. 248, Ency., III, p. 1088.

٥ اللسان (١/٣٩٩) ، (دبب) .

الجاهليين ، ولم تكن تعني العلمية عندهم . أي ألوهية خاصة بالله ، وهي تؤدي معنى (بعل) عندهم أيضاً . فكانوا يطلقونها على الإلـه والآلهة وعلى الإنسان باعتباره سيّداً ومالكاً . أما هذا التخصص الذي يذكره علماء اللغة ، فقد حدث في الإسلام من الاستعمال الوارد في القرآن الكريم .

و (ربّ البيت) ، الله ، وكذلك : (رب هـذا البيت)[1] . و (رب الدار) ، أي مالكها ، وكل من ملك شيئاً ، فهو ربّه . وبهذا المعنى (هو رب الأرباب) . أما (الربة) ، فعنوا بها الصخرة التي كانت تعبدها ثقيف بالطائف . وكان لهم بيت يسمّونه (الربة) و (بيت الربة) ، يضاهي (بيت الله) بمكة . فلما أسلموا هدمه (المغيرة) . و (الربة) : كعبة كانت بنجران ، لمذحج وبني الحارث بن كعب يعظمها الناس[2] .

وأما (بعل) ، فمعناها مالك وصاحب ورب في اللهجات السامية . فترد بعل الموضع الفلاني ، أي صاحب ذلك الموضع وربه . ومؤنث الكلمة هو (بعلت) . وترد كلمة (بعل) بمعنى زوج في العربية ، وقد وردت بهذا المعنى في مواضع من القرآن الكريم[3] ، وأما الزوجة ، فهي (بعلت) (بعلة) أي في حالة التأنيث[4] .

ولما كانت لفظة بعـل تعني الرب والصاحب ، صار اسم الموضع يرد بعـد (بعل) ، فيقال : (بعل صور) ، و (بعل لبنان) ، و (بعل غمدان)، أي رب المواضع المذكورة وصاحبها وسيدها . أما اذا وردت اللفظة مستقلة دون ذكر اسم الموضع المنسوب اليها بعدها ، فتعني عندئذ رب وإلـه، أي رب الجماعة المتعبدة المؤمنة به[5] .

وقد ورد في القرآن الكريم في صدد الكلام عن الياس Elijah « وانّ إلياسَ لَمِنَ المرسلين . إذ قـال لقومه : ألا تتقون ؟ أتدعون بعـلاً وتذرون أحسن الخالقين »[6] . وقد ذهب الطبري في تفسير (بعل) في هذه الآية الى أن بعـلاً

---

١ (فليعبدوا رب هذا البيت) ، قريش ، الآية ٣ .
٢ اللسان (١/٣٩٩ وما بعدها) ، (ربب) .
٣ البقرة : الآية ٢٢٨ ، هود : الآية ٧٥ ، النور ، الآية ٣١ .
٤ Ency., I, p. 610, Robertson, p. 94.
٥ Robertson, p. 94.
٦ الصافات ، الآية ١٢٢ وما بعدها .

تعني رباً في لغة أهل اليمن ، او ان المراد ببعل صنم[1] .

ومن رأي (روبرتسن سمث) Robertson Smith أن العرب اقتبسوا المعنى الديني لبعل من الأقوام السامية المجاورة لهم مثل سكّان (طور سيناء) أو موضع آخر ، أخذوه من تلك الأقوام التي عرفت باشتغالها بالزراعة ، ولا سيما زراعة النخيل ، وان هذا المعنى دخل اليهم بدخول زراعة النخيل الى بلاد العرب ، وأنه استعمل عند العرب المزارعين . أما البدو والرعاة ، فإنهم لم يستخدموا تلك اللفظة بالمعنى المذكور[2] . وهو رأي يخالف رأي بعض المستشرقين من أمثال (نولدكه) Nöldeke و (وهوزن) Wellhousen الذين يرون أن عبادة (بعل) هي عبادة سامية قديمة كانت معروفة عند قدماء العرب منذ أقدم العهود[3] .

ويرى بعض المستشرقين ان لفظة (بعل) أطلقت خاصة على الأرض التي لا تعتمد في زراعتها على الأمطار أو على وسائل الري الفنية ، بل على المياه الجوفية وعلى الرطوبة في التربة ، فينبت فيها خير أنواع النخيل والأثمار ، فهي تمثل الخصب والنماء . والظاهر ان الساميين كانوا يخصصون أرضهم بالآلهة ، لتمنّ عليهم بالبركة واليمن ، فتكون في حمى ذلك الإلـه (بعل الموضع الفلاني) . ومن هنا صارت جملة (بعل سميم) (بعل سمن) (بعل سمين) تعني (رب السماء) ، ويعنى بذلك المطر الذي هو أهم واسطة من وسائط الإسقاء والخصب والنماء في جزيرة العرب وفي البلاد التي يسكنها الساميون[4] . ورأى مستشرقون آخرون ان جملة (أرض بعل) تعني الأرض التي تسقى بالأمطار[5] .

وذكر العلماء أن لفظة (الال) بمعنى الربوبية ، واسم الله تعالى . وأن كل اسم آخره (ال) أو (ايل) فمضاف الى الله تعالى ، ومنه (جبرائيل) و (ميكائيل) . وذكر أن (أبا بكر) لما سمع سجع (مسيلمة) ، قال : هذا كلام لم يخرج من ال ولا بر ، أي لم يصدر عن ربوبية[6] . وقد ذهب

---

١ تفسير الطبري (٢٣/٥٣) ، Ency., I, p. 610.

٢ Robertson, p. 97.

٣ Nöldeke, in ZDMG., Bd. 40, 1886, S. 174, Reste, S. 146, Handbuch, I, S. 240.

٤ Robertson, p. 97, Ency. Religl., I, p. 664.

٥ Reste, S. 146.

٦ تاج العروس (٧/٢١١ وما بعدها) ، (أل) .

بعض علماء اللغة الى أن اللفظة (ايل) من المعربات . عربت عن العبرانية، وهي فيها اسم الله[1] . وهي من الألفاظ العامة التي ترد في اللغات السامية ، ولا يعرف معناها على وجه مضبوط ، ويظن أنهـا بمعنى (القادر) و (العزيز) والقهار ، والقوي ، والحاكم . وترد في الشعر وفي أسماء الأعلام في الغالب . وقلـما نجدها ترد في النثر[2] .

وقد وردت في نصوص المسند وفي نصوص أخرى ألفاظ كثيرة مثل (ود) و (سمع) أي (سميع) و (حـكم) أي (حكيم) ، و (حلم) أي حليم) و (علم) أي (عالم) و (عليم) ، و (رحم) أي (رحيم) ، و (رحمنن) أي (الرحمن) ، وأمثال ذلك . ذكرت على صورة أسماء آلهة . لكنها في الواقع صفاتها لا أسماؤها . ذكرت في مقام ذكر أسماء الآلهة ، كما يقول المسلم في دعائه ربه يا سميع ويا حكيم ويا رحيم . وهي صفات وردت في القرآن الكريم .

وعلى من يريد الوقوف على رأي الجاهليين في طبائع آلهتهم وفي تعيين صفاتها، حصر هذه الصفات وضبطها ، وتعيين مدلولها ، وهي صفات تدل على معـانٍ خلقية مجردة . وسنتمكن بذلك من الوقوف على نظرة الجاهليين الى آلهتهم ، ومن تعيين وتثبيت عددها إذ سيظهر لنا من هذه الدراسة ان أكثر تلك الأسماء ليست أسماء آلهة ، وانما هي صفات لها ، وان الكلمات التي لا يشك في كونها أسمـاء صحيحة قليلة جـداً ، ربما لا يتجاوز عددها الثلاثة ، هـي الثالوث . ومن يدري ؟ فقد تكون في النتيجه اسماً لإلـه واحد ، وعندئذ يمكن أن نتوصل الى نتيجة علمية بالقياس الى عقيدة الشرك أو التوحيد عند العرب الجاهليين .

ويجد الانسان اليوم سذاجة مضحكة في بعض العقائد الدينية التي كانت عنـد الشعوب القديمة ، ويستصعب تصور اعتقاد الناس بها ، وهو ينسى أن هذه العقائد أو بعضها على الأقل ، لا تزال معروفة بين بعض قبائل افريقية وأستراليا، وأماكن أخرى من العالم ، وان العقل الانساني في تطور مستمر ، وان هناك بشراً يؤمنون بعقائد ورثوها عن آبائهم لا تقل غرابة عن غرابة بعض المعتقدات الـتي نؤاخذ

---

١ تاج العروس (٢١٨/٧) ، (ايل) .
٢ Hastings p. 299 «God».

بها قدماء البشر ، مع أنهم من الشعوب المتقدمة في الحضارة وفي المدنيـة ، ومن القرن الـذي نفتخر بتسميته بقرن العقوق على الأم ، والهروب منهـا الى بيوت أخرى ، تكون بعيدة عنها ، سابحة في هذا الفضاء .

وقد يصعب على الانسان اليوم تصوّر وجود فائدة أو ضرر من أشيـاء جامدة لا يمكن قطعاً أن تضرّ أو تنفع ، ولكن القدماء تصوروه مع ذلك واعتقـدوه . فقدسوا الأحجار والأشجار والحيوانات ، وقدّسوا الأرواح والأمـوات من الآباء والأجداد والقديسين ، وتعبّدوا لها . ولهذه العبادات أسماء علميـة خاصة اصطلح على تسميتها العلماء .

والدين هو إيمان وعمل : إيمان بوجود قوى هي فوق طاقة البشر ، لها تأثير في حياته وفي مقدراته ؛ وعمل في أداء طقوس معينة تعين شكلها الأديان للتقرب إلى الآلهة ولاسترضائها . والإيمان هو قبل العمل بالطبع ، فلا بد للقيام بالشعائر ، أو بأداء العمل ، من وجود إيمان عنـد الشخص أو الأشخاص بوجود إلـه أو آلهة . حتى يقوم بعمل ديني[1] . فالعمل تابع للايمان ، ونتيجة من نتائجه ، وهو شعاره ومظهره . وهو أبرز عند الأقوام البدائية من الايمان لدرجة عقليتها ومجال تفكيرها الضيق . ومن العمل : الرقص ، والأفراح الدينية ، والسحر ، والقرابين ، والحج ، والصلوات[2] .

وقد أقر الاسلام أشياء من أمور الدين كان يمارسها الجاهليون في جاهليتهم ، لأنها لا تتعارض مع مبـادىء الإسلام . ودراسة أمثال هذه الأشياء توضح لنـا نواحي خافية علينا في الزمن الحاضر من الحياة الدينية عند الجاهليين ، لذلك أرى من الضروري تتبع هذه الأشياء لتدوين تأريخ صحيح للدين عند الجاهليين . وأرى من الضروري كذلك تتبع الأساطير والعادات الموروثة التي لها صلة وعلاقة بالدين الجاهلي بين الأعراب والحضر في كل أصقـاع جزيرة العرب ، ولا سيما القرى العربية النائية عن العمران المنعزلة عن الأعاجم ، فإن معظم هذه الأساطير والتقاليد هي من بقايا الوثنية العربية القديمة ، بقيت جذورها ثابتة راسخة في الأفئدة حتى اليوم .

---

١ The Golden Bough, p. 50, Abridged Edition.

٢ Ency. Brita., Vol. 19, p. 108.

ولا بد أيضاً لدراسة الدين عند الجاهليين دراسة صحيحة من الرجوع الى أصول الأشياء ، وأعني بأصول الأشياء هنا ديانة الساميين الأولى بشكلها البدائي القديم . فمن تلك الشجرة تفرعت أديان الشعوب السامية ، وفي ذلك الدين نجـد الأصول والأسس التي بنيت عليها الديانات الفروع .

أما كيف نتمكن من الرجوع الى الأصل ومن معرفة ديانة الساميين القديمة ، فموضوع ليس بالسهل اليسير ، ونحن ، وان كنا نملك بعض المؤلفات والبحوث عن أديان الساميين ، لا نستطيع أن نجرؤ فنقول ان البحث قد نضج فيه ، وان القوم قد استوفوه من أطرافه وأكملوه ، بل ان كثيراً ممـا تطرق اليه العلماء هو موضع جدل واختلاف ، ولن يمكن التوصل الى نتائج مقبولة معقولة إلا اذا تمكن الباحثون من الحصول على وثائق جديدة تكشف النقاب عن أديان قدماء الساميين.

وللتوصل الى تكوين رأي عن أديان الساميين القديمة لا بد من دراسة النصوص الدينية الساميّة كلها ، ودراسة كل ما له صلة بالدين عنـد الساميين ، ومقارنة الأديان السامية بعضها ببعض ومراجعة الأصول اللغويـة للمصطلحات الدينية عند جميع الشعوب السامية للتوصل منها الى الأسس العميقة المدفونة التي أقيم عليها بنيان ديانـة الساميين . ثم لا بد أيضاً من دراسة المؤثرات الخارجيـة التي أثرت في الساميين من عوامل طبيعية ومن عوامل أخرى غير طبيعية ومن الأثر الثقافي الذي كان لغير الساميين في الساميين .

ويتبين من دراسة الأساطير السامية وجود شكل من أشكال التوحيد Henoteism عند القبائل السامية البدائية ؛ يمثل في اعتقاد القبيلة بوجود إلـه لها واحد أعلى ، غير ان هذا لا يعني نفي اعتقادها بتعدد الآلهة . فإننا نرى ان تلك القبائل كانت تعتقد ، في الوقت نفسه، بالأرواح كأنها كائنات حية ذات أثر وسلطان في مصير هذا الكون ، وفي ضمنه الانسان ، وبآلهة مساعدة للإلـه الكبير[1] .

والديانات السامية ، وإن كانت في الأصل من ديانة قديمة،قد تطورت وتغيرت بعوامل عديدة من العوامل التي تؤثر في كل المجتمعات البشرية فتحدث فيها انقلاباً في التفكير وفي طراز الحياة . ومن هذه العوامل المؤثرات الخارجية والمحيط الجديد. وسنجد ان ديانة العرب الجنوبيين ، وإن كانت في الأصل من تلك الديانة السامية

---

١ Ency. Religi., II, p. 283.

الأصلية فيها مثل (ال) (ايل) وأمثال ذلك ، قد غيرت في ديانتها،وبدّلت في تصوراتها للآلهة ، حتى صارت في بعض معتقداتها على نقيض مع معتقدات الساميين الشماليين .

وفي الدين معبود يعبد هو الله ، أو جملة آلهة ، أو قوى خارقة تلعب في مقدرات الانسان.وعبدة يتعبدون له أو لها . فهم عبّاده أو عبّادها . و (العبادة) الطاعة ، وأداء الواجبات المفروضة على الانسان تجاه الله[1] ، أو الآلهة .

والرأي المعروف بين الناس حتى الطبقة المتعلمة منهم ، أن العرب الجاهليين كانوا على جانب عظيم من الانحطاط الديني قبل الاسلام ، وأن تفكيرهم في ذلك تفكير منحطّ لا يتجاوز تفكير القبائل البدائية . وهو رأي خاطىء ، يفنده القرآن الكريم . وإذا كان ما يقوله صحيحاً بالقياس الى السواد والأعراب ، فإنه لا يصح أن يكون حكماً عاماً على الكلّ ، ولا سيما على المتحضرين وعلى من كان لهم اتصال بالعالم الخارجي .

وتأريخ أديان العرب قبل الإسلام ، فصل مهم جداً من فصول تأريخ العرب عامة قبل الاسلام وبعدها ؛ بدونه لا يمكن فهم عقلية القوم الذين نزل الوحي بينهم وطريقة معرفة تفكيرهم ووجهة نظرهم الى الخالق والكون ثم الأسباب التي دعت الى نزول الوحي وظهور الإسلام . وبدون دراسة أديان الجاهليين ومقالاتهم في الخالق والخلق ، لا نتمكن أبداً من فهم رسالة الإسلام فهماً صحيحاً . بل ان هذه الدراسة أيضاً فصل مهم جداً لفهم كثير من الأمور الواردة في التوراة والانجيل إذ كان العرب قوماً من هذه الأقوام التي كانت لها صلات قديمة بأرض الوحي التي نزل بها الكتاب المقدس بعهديه ، وعضو فعال في هذه المجموعة المسماة بالشعوب الساميّة . ما نعثر عليه من جديد في الناحية الدينية،يكشف عن غوامض عديدة من غوامض العهدين،فجدير بالعلماء وبنا إذن الانصراف الى البحث والاستقصاء للعثور على المصطلحات المفقودة من هذا الفعل .

وسنرى في الفصول القادمة أسماء رجال كان لهم شأن وخطر في الحياة الدينية للجاهليين ، وقد زعم أهل الأخبار ان بعضاً منهم كان من الأنبياء الذين جاءوا الى قومهم برسالة . وان بعضاً آخر ، كان من المصلحين الهادين ، من أصحاب

---

١ تاج العروس (٢/٤١٠ وما بعدها) .

العقول النيرة التي هزأت بالأوثان وبديانات قومهم . وان رجالاً منهم كانوا على الحنيفية ، يريدون بها ديانة التوحيد ، وان آخرين بشّروا بالوثنية، وأشاعوها بين العرب ، لما كان لهم من مكانة ونفوذ . وان رجالاً من الجاهليين كانوا على ملة اليهودية ودين المسيح . وان قوماً من أهل الجاهلية كانوا على عبادة (الله) و (الرحمان) ، وكل المذكورين كانوا ممن مهد الجادة اذن لظهور الاسلام .

وقد أدى ظهور الاسلام الى ظهور مصطلحات جديدة وموت مصطلحات قديمة، وصارت هذه المصطلحات من علائم الوثنية . ولا بد لنا للوقوف على صورة أوضح للحياة الدينية عند الجاهليين من وجوب دراسة الألفاظ الجاهلية ذات المعاني الدينية بجمعها وتبويبها وتثبيت معانيها ، فبهذه الدراسة نستطيع الوقوف على مبلغ تغلغل الحياة الدينية في نفوس الجاهليين ، ومعرفة مدى تعمقهم في الدين وفهمهم له .

ومن الدراسات التي يجب أن تنال منا الرعاية والعناية لمعرفة الحياة الدينية وتطورها عند الجاهليين معرفة صحيحة ، دراسة المصطلحات الدينية بحسب اللهجات العربية، وأماكن تلك اللهجات ، وأسماء الأصنام أو الأوثان ، ومعتقدات سكان تلك الأرضين في هذه الأيام ، فإن دراسة مثل هذه تفيدنا فائدة كبيرة في معرفة أسس الحياة الدينية عند الجاهليين ، وفي معرفة اختلاف العرب أو اتفاقهم في العقائد وفي الأمور الدينية ، ومعرفة العوامل والأسباب التي أدت الى ذلك ، ثم معرفة المؤثرات الخارجية في الحياة الدينية للجاهليين . وبتثبيت هذه وأمثالها وبمقارنتها بأسماء أصنام الأقوام المجاورة وآلهتهم ومصطلحاتهم ، نستطيع فهم كثير من الأمور الغامضة من الحياة الدينية عند العرب وعند تلك الأقوام ، وفهم الاحتكاك العقلي والصلات الروحية التي كانت بين تلك الشعوب قبل الاسلام .

إن الأخباريين عفا الله عنهم ، لم يعنوا بتنسيق هذا الذي توصلوا اليه ورووه لنا من آراء الجاهليين في الدين . فرووا روايات مختلفة متناقضة أو مقتضبة اقتضاباً مخلاً وجاءوا بأمور تثبت ان أولئك الأخباريين لم يكونوا على مستوى عالٍ من النقد والتعمق في دراسة الأخبار ، وانهم كانوا يروون أخبارهم بالمعنى المفهوم من الأخبار ، يأخذون ما يقال لهم فيروونه على نحو ما سمعوه وإن كان فيما يروونه ما يخالف المنطق والفهق السليم . والاستسلام للروايات داء يذهب بالفائدة منها ، ويعود على المؤرخ بأفدح الأضرار . ولهذا نجد أنفسنا في موضوع أديان العرب

قبـــل الاسلام في زوبعة عاتية وعاصفة مليئة بالرمال نتخبط فيهـــا للحصول على مخرج نخرج منه ، وليس لنا إلا الأمل بالخروج من هذه العاصفة العاتية المتعبة في وقت ما .

وهذا الذي أورده أهل الأخبار عن أهل الجاهلية على ما فيه من تناقض وتضارب واقتضاب ، هو كما رأينا مادتنا الوحيدة عن الحياة الدينية عند عرب الجاهلية قبيل الاسلام وعند ظهوره ، ولا سيما بالنسبة الى عرب الحجاز وعرب الشأم والعراق . وهناك روايات لم نستفد منها حتى الآن ، لصعوبة التوصل اليها ، لا لكونهـا في بطون المخطوطات ، ولهذا يصعب الحصول عليها . فإن الكثير منهـــا قد طبع ، وهو في متناول الأيدي ، إنمـــا صعوبتها في كونها في كتب مطبوعة طبعاً على الطريقة القديمة بلا نظام ولا ترتيب ولا تبويب فنيّ ولا فهرست لما في الكتـــاب المطبوع من مواد ومن أسماء أشخاص أو أصنام أو أوثان أو ما شابه ذلك . وليس أمام المؤرخ في هذه الحالة إلاّ أن يقرأ تلك الكتب من بسملتهـا حتى منتهاها ، ليحصل منها في النهاية على كلمة أو كلمتين أو خبر أو أخبـــار ، ولكن كيف يتمكن المؤرخ من قراءة كتب ضخمة كتفسير الطبري وكتب التفـــاسير الأخرى وشروح الحديث وكتب التواريخ والطبقات وبقية الكتب إذا كان الكتـاب يتألف من أكثر من عشرة أجزاء ، وهي كلها بلا فهرست للأعلام ولا لما في الكتاب من فوائد ومواد . لا يتمكن المؤرخ بالطبع من قراءة كلّ هذه الموارد المذكورة مع تساوي عمره بسائر أعمار الناس ، ولو مدّ الله في عمره وصيّره إنساناً آخر ذا عمر طويل من أعمار الأناس الذين أرخهم (السجستاني) في كتاب المعمرين ، لتمكن من الإحاطة ببعض تلك الموارد على الأقل . غير أن عمر المؤرخ ويا للأسف مثل أعمار سائر النـــاس ، قصير محدود ، فليس في إمكانه الإحاطة بما ورد في هذه الكتب الواسعة المجهولة ، على ظهورها في عالم الوجود ووجودهـا في خزانة كتب المؤرخ وفي يد أي شخص يريد الحصول عليها ، لأن الموضوع ليس موضوع وجود كاتب مطبوع أو مخطوط ، إنما هو اكتشاف ما في المطبوع أو المخطـوط من آراء وأخبار وأعلام .

ما دام الوضع على هذا الحال وما دامت أكثر كتبنا غير مفهرسة ولا منسقة ، فليس في استطاعة المؤرخ أن يأتي بشيء كثير يشفي غليـــل من يريد المزيد من

المعرفة عن الحالة الدينية عند العرب قبل الإسلام . وهذا أمر يؤسف له بالطبع كثيراً . وسيأتي بعدنا من يضيفون الى هذا العلم البسيط الذي توصلنا اليه علماً كثيراً ، ثم يتوصل من بعدهم الى أكثر من ذلك ولا شك . ومن يدري ؟ فلعلّهم يتوصلون الى كتابات جاهلية تغنيهم عن كل هذا الذي أخذناه من موارد إسلامية كتبت بعد الجاهلية بعشرات السنين . وليس لنا ، وسنكون بالطبع من الماضين ، إلاّ أن ندعو لمن يأتي بعدنا بالتوفيق والنجاح التام .

obeikandl.com